مـــقـــالات

التربيـة والقوى الخفيـة عند الأطفال

د. علي وطفة

يمتلك الطفل منذ لحظة ميلاده **قوى داخلية هائلة نجهل حدودها**، وأبعادها. لقد بدأت **هذه الحقيقة تتكشف في ضوء الدراسات الجارية في ميدان البيولوجيا وعلم النفس، وبدأت تفرض نفسها اليوم في مستوى الوعي العلمي للمفكرين والمربين.**

وتحت تأثير الذهول الذي أحدثته اكتشافات هذا العصر الهائلة في عالم المادة، بدأ الناس يدركون جيداً ما يتوجب عليهم تجاه أبنائهم وأطفالهم. وإذا كانت الإنسانية تحقق خطوات هائلة في مجاهل المادة وفي تسجيل الاكتشافات الأسطورية فإن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: **هل يمكن للتقدم العلمي أن يتجاوز ما يعاند انطلاقته نحو الحياة والمستقبل**، وهل يمكن لهذا التقدم أن يناهض عن وجودنا أذى وبلاء هذه المادة المبتذلة التي نعيش فيها اليوم؟

وفي خضم هذه التموجات الهائلة من الاكتشافات العلمية بدأت مسؤولية التربية تواجه تحديات مصيرية. والسؤال الجوهري هنا هو: **هل يمكن لنا حقا أن نمارس مسؤولياتنا** التربوية الحقة إذا كنا نجهل ما هية الطفولة وطبيعة الأطفال؟ ألا يترتب علينا **في النهاية أن نتحرر من هذه الفكرة الغبية والمقبولة، والتي تصور الطفل على أنه مجرد كائن وظيفته تناول** الطعام، وأن الأم يمكنها بالنتيجة أن تعهد به إلى أي كائن للعناية به. ألم يحن الوقت أيضاً لأن يقلع المربون عن الإعلان بأن الاهتمام بالطفل يجب أن يبدأ في سن معينة: في العاشرة أو الخامسة عشر على سبيل المثال.

فالجنس البشري يريد الاستمرار بعيدا عن الموت وطلبا للحياة الآمنة، ويسعى إلى تحقيق النماء والتطور. ومع ذلك كله فإن المجتمعات المعاصرة التي اكتشفت الطفل تأخذه بأحضان الألم وتسبب له الأذى، لقد تقدمت مناهج التربية لكنها تطبق اليوم بصورة خطرة على وجود الطفل وحياته، وفي هذا الصدد يرى بعض الأيديولوجيين أن التقدم المادي يؤدي في بعض الحالات إلى إلحاق الأذى الجسدي والأخلاقي في بنية الأطفال، وهذا يعني أنه إذا كنا نشعر بعظمة الطفولة فإننا لم ندركها جيداً حتى اللحظة! فكيف يمكن لنا أن ندرك طبيعة الطفولة؟

يجب علينا في البداية أن نحدث تغيرات جوهرية في أفكارنا وأن نسقط مشاعر تفوق الراشد، فالعالم يتجه في تطوره نحو آفاق روحية بصورة واسعة، ومع ذلك فإن الراشدين

يعيشون الشيخوخة والمرض، وهم في الوقت نفسه يحتقرون الأطفال. ألا يجب على الراشدين اليوم أن يمنحوا الأطفال حنانهم ومشاعرهم وحبهم؟

نحن ندرك بشكل أفضل اليوم وعلى الرغم من الاخفاقات والتراجعات القائمة، أن **الحياة انتهت إلى ظهور الإنسان، وأن الإنسان ذاته يجد تطورا في خصائصه وإمكانياته الروحية الرائعة**، وهناك عدد هائل من الإمكانات ا لروحية التي ما تزال بين ثنايا وطيات المجهول. ومن أجل دفع الإنسان إلى آفاق جديدة من التقدم تعمل الحياة على وضع الإنسان بصورة دائمة في بحث لا ينقطع عن السعادة، فالبحث عن السعادة يؤدي إلى تفجير الطاقات الروحية الكامنة عند الإنسان.

فالإنسان الذي يجب أن يقطف ثمار هذا الكون أصبح اليوم أداة ووسيلة. لقد أفسد الطبيعة بسيطرته عليها، واستمر في الانفلات من سيطرة المادة، ووجد نفسه أكثر قدرة على تطوير ذكائه وطاقاته الروحية. لقد أصبحت المعارف من كل نوع تحت تصرفه، ويعود ذلك إلى فضل الكتب والصحف والراديو والانترنيت، واستطاع بفضل هذا التقدم التكنولوجي أن يحصل على مزيد من وقت الفراغ، والحصول على فرص مذهلة للنمو والتطور والازدهار.

وهناك أمل كبير اليوم أن تستطيع الإنسانية بفضل التقدم التقني، وبفضل إدارة أفضل أن تحقق توازنا كبيرا يعم بالخير على جميع أفراد المجتمع الإنساني بدون استثناء، وأن يتم القضاء على البؤس والفقر، ولكن **هل تستطيع الإنسانية حقا أن تحقق هذه الأمنية في حياة يسودها الأمن والرضاء والعدالة والسلام؟**

يجب علينا أن نعترف بأننا نجهل أنفسنا كثيرا، وأننا لا نعرف عن حقيقتنا الوجودية إلا قليلا، وأنه لمن المؤكد أنه يوجد داخلنا غنى علينا معرفة الكثير عنه. وفي هذا الصدد يمكن القول أنه بعد هذا التقدم الرائع والهائل الذي حققته الإنسانية في مستوى الحياة المادية، يجب علينا أن نحقق تقدما مماثلا **في مجال اكتشاف العالم الداخلي للإنسان.**

وإذا كان هذا العالم الخارجي لم يكتشف بعد فذلك لأننا لا نملك الوسائل الحقيقية لعملية الكشف عن هذا العالم السحري، فالإنسان يمتلك طاقات هائلة تمكنه من أن ينتصر على الشر والجهل والألم، وذلك بصورة متقدمة على غرار ما هو عليه اليوم.

إن عدم تطور المعارف الخاصة بالعالم الداخلي للطفل، أمر ناجم عن توجيه أسلافنا لطاقاتهم تحت إلحاح الحاجة وضرورتها من أجل معرفة العالم المادي والسيطرة عليه، وذلك في إطار شروط حياة صعبة وشاقة، ومع ذلك يمكن القول بأن اكتشاف عالمنا الداخلي لا يمكنه أبدا أن يحدث فجأة، وإذا كانت **هذه القوى والكنوز الداخلية ما زالت مجهولة فإنها مع ذلك ما زالت موجودة، ولم تتعرض للفناء، فنحن نورث هذه القوى المجهولة إلى أطفالنا، ويبقى واجبنا في أن نساعد هؤلاء الأطفال أنفسهم على اكتشاف بعض مجاهل هذه القوى.**

وهنا تبرز الإشكالية الحرجة للحياة التربوية. **فالمعلم هنا يجد نفسه إزاء مهمة لم يتعلم هو نفسه عنها شيئاً، إذ كيف يترتب عليه أن يوقظ في نفوس الأطفال معرفة هذه القوى التي**

يجهلها هو نفسه تمام الجهل، والمسألة هنا ليست مسألة انتقالية أو زمنية، وإذا انطلقنا من فكرة أنه يجب على الإنسانية أن تطور نفسها، فإنه يترتب علينا أن نؤمن بأن الأطفال يتجاوزون آباءهم، وبالنتيجة فإنه يجب على هؤلاء الأطفال أن لا يأخذهم العجب بتفوقهم.

ولنعترف أنه يتوجب علينا أن نأخذ بأطراف التواضع، وأن نكون حذرين من أنفسنا بعض الشيء، **فأطفالنا بالنسبة لنا هم كائنات مجهولة** فيما يتعلق ببنيتهم وطاقاتهم الكامنة، **والطفل لا يمكنه أن يتفوق علينا كما نرغب إذا لم نستطع أن نكتشف فيه هذه القوى الداخلية وننميها**، وهي القوى التي نجهلها في أنفسنا، ومن أجل ذلك يتوجب علينا **أن نبني في هذا الكائن المجهول عادة إيجابية في التعرف والكشف عن كل ما هو مجهول، وهو الشئ الوحيد الذي يمكنه أن يبعث في النفس الإنسانية حب الاستطلاع والاكتشاف**، وهو عادة الملاحظة الموضوعية التي تخلو من الأحكام المسبقة وتبتعد عن الفطرسة والخيلاء.

ومع ذلك كله يمكن القول وبدون تحفظ، وبعيداً عن خطر المجازفة: **إن موقف الراشدين من الصغار يأخذ اتجاها يعاكس عملية بناء روح الابتكار والكشف.**

ومن غير تعدد التبريرات المختلفة لموقفنا، فأنه يترتب علينا أن نذكر بأن هدف التربية **هو تحقيق التكيف الأفضل الممكن بين الطفل والواقع الاجتماعي، وليس أبداً هو تحقيق النمو الشخصي له**، وأن الهدف الأخير يمثل في أفضل أحواله المركز الثاني، وبالتالي يمكن الملاحظة أن هذا الهدف كان نتاجاً له فرص مختلفة باختلاف الأزمنة، والمجتمعات الإنسانية.

لقد تمت في سياق الزمن المصالحة بين الحرية النسبية في إطار عبودية أخلاقية كاملة، ومع ذلك بقيت الفكرة الأساسية، وهي تحقيق توافق الطفل مع الوسط الذي يعيش فيه كفكرة أساسية وأولية.

لقد تنوعت المناهج التربوية وتعددت وترافقت بتطور المبادئ التربوية الواقعية، وذلك على الرغم من عظمة بعض المنظرين المفكرين التربويين، وعلى الرغم أيضا من كبار المنظرين المجددين في مجال التربية، **فالانطلاق من أقصى الشدة إلى أقصى التساهل، ومن التشويق إلى ممارسة الإكراه**، هي أساليب تجد حظوتها عند أغلب المربين، وذلك مع إهمال النتائج التي يمكن أن تترتب على مثل هذه الممارسات التربوية التي تعد من أخطر الممارسات التي يمارسها الراشد، وهو الإنسان الذي وصل إلى الحدود القصوى لنموه، واستطاع أن ينتصر على جهله. فالراشد من حيث المبدأ يستطيع أن يجانب الخطأ في ممارساته وسلوكه، لأنه يمتلك على المعرفة والسلطة، وهو في الوقت نفسه يعلم الأطفال وهو غالبا ما يكون بعيداً عن الواقع الذي يريد أن يفرضه على الطفل.

والجميع يتفق اليوم بأنه لا يوجد شخص إلا ويملك القدرة على إصدار الأحكام القيمة على الآخرين، وذلك بدلا من أن يحكم على نفسه بصورة موضوعية، أما الطفل وعلى خلاف ذلك يترتب عليه تحت تأثير الحاجة إلى احترام الآخرين ولا سيما الآباء والمعلمين، أن يكون أعمى وأصم، وأن يمتلك طبعا شريراً، وأن يبرهن على افتقاره إلى القدرة على إصدار الأحكام

الموضوعية، وذلك من أجل أن يوافق **على أن يتعلم بأن الأسود يمكن أن يكون أبيضا**، وأن الأبيض يمكن أن يكون أسودا، وأن الحق باطل والباطل حق، وأن الراشد هو الإنسان الكامل.

هذا التشويه الذي ينال من قدرة الطفل على إصدار الأحكام الموضوعية أمر يدعو حقا إلى الأسف. ونحن الراشدين محمولون على الاعتقاد بأننا كائنات كاملة، **وبالتالي فإن حيازة السلطة وممارستها تعزز لدينا مثل هذا الاعتقاد**، ومع ذلك فإن نتائج هذه المغالطة خطرة إلى حد كبير بالنسبة لنا كما هو الحال بالنسبة للطفل، فمن يعتقد بأنه كامل يمتنع بالتحديد عن تحقيق أي تقدم أو تطور.

ولقد أعلن رويرت اوينهاير منذ سنوات أن هؤلاء الأطفال الذين يلعبون في الشارع قادرون على حل المسائل الفيزيائية الأكثر تعقيداً **وذلك لأنهم يملكون نموذجاً رفيعاً للإدراك فقده الراشدون منذ زمن طويل**. وأن هذه القدرة الإدراكية عند الطفل والتي تتيح لهم القدرة على المشاركة في أعلى مستويات البحث، **تبدأ بالظهور فقط دون أن توظف فعليا**. وقد اعترف آدموند بيكون على سبيل المثال، وهو رئيس لجنة التموين في فيلادلفيا علناً **بأنه قد طلب مساعدة أطفال المدارس الابتدائية في إيجاد الحلول لمسائل التموين الكبرى التي واجهته**، حيث كلف بعض الباحثين بتدريس الأطفال المخططات الموضوعية من أجل المدينة وطلب إليهم مناقشة هذه المخططات فيما بينهم ومع آبائهم وجيرانهم، ومن أجل ذلك وضعهم في صورة الجوانب الفيزيائية الجغرافية للمدينة. وفي النهاية عاد الأطفال وهم يحملون بعض الحلول المتميزة حول جملة المسائل المطروحة.

لقد بدأ الاعتراف اليوم بأن الأطفال يمتلكون قدرات خفية هائلة ويجسدون قدرة نامية يجب أن تحظى بالعناية وأن تخضع لمبدأ الاستثمار. وبطريقة أخرى يمكن القول، وذلك على المستوى التربوي أن نظام التخصص والتصنيف الدقيق ليس له غاية واقعياً إذا كانت الحياة في المجتمع المعاصر تتميز بتطور وغزارة التدفق الثقافي، ولا سيما أهمية المعلومات التكاملية التي يقدمها الراديو والتلفزيون والسينما والحاسوب والأنترنيت ونظام الشبكات. والاصرار على أهمية التعليم المدرسي بوضعه الحالي يعد بمثابة فكرة ساذجة وغريبة تسعى إلى توظيف المدرسة كأداة لحرمان نصف أو ثلاثة أرباع أبناء المجتمع من الثقافة العليا.

ولا يوجد ما يمنع الأطفال الصغار من أن يكونوا تجريبيين مندفعين ومتحمسين أو مكتشفين ورواداً في مجال العلم والمعرفة، وتلك هي توجيهات المجتمع المعني والعالم الذي يتجاوز واقع الأشكال العتيقة والميكانيكية إلى بنى جديدة من التفاعل الإلكتروني عن التراكم البسيط للمعطيات إلى مستوى التجريبية البنيوية.

تجدر الإشارة إلى جملة من الصعوبات التي تواجه الحياة الاجتماعية المعاصرة برمتها، وتتبدى إحدى كبريات هذه الصعوبات في أهمية تنوير التعليم الابتدائي وما قبل الجامعي ليواكب القدرة الهائلة للتعليم العالي وليعبر عن احتياجاته، وبعبارة أخرى، سيتوجب علينا أن نبرمج تعليمنا ونوجهه نحو تفجير الطاقات الإبداعية ولاكتشاف المعرفة كتحصيل عفوي في

إطار شروط المعلوماتية الجديدة التي تأخذ طابعا إلكترونيا.

أما الوعي الجيد لطبيعة المتعلم فقوامه: أن المتعلم ليس كائنا متلقيا وحسب، **إنه مبدع منذ البداية، لو تفحصنا تصوراته للعالم وتعبيراته عن الانفعال لوجدناها -على بساطتها- تعبيرات وتصويرات مبدعة**، إن هذه الأصالة الفطرية هي مفتاح النمو السوي للأطفال وهي - لكي تفصح عن ذاتها إفصاحاً كاملا- **تقتضينا معاونة الطفل على الاقتراب التلقائي من العالم والدخول في علاقة حميمة مع البشر والطبيعة**، علاقة تربط الطفل إلى العالم دون أن تمحو هويته الثقافية أو تشتتها، إن هذه هي مسؤولية الكبار نحو الطفل، وهؤلاء الكبار- آباء كانوا أو معلمين، والمعلمون على وجه التخصيص- إن لم يؤتوا الحكمة والمعرفة والإرادة فإنهم سيصبحون -بوعي منهم أو من غير وعي- أداة لتخريب النمو السوي في الطفل وذلك بأفانين غامضة.

لقد كان من تعاليم الفيلسوف الألماني عمانويل كانط Kant آن تربية الأطفال وفقاً للمفهوم الإنساني- يجب أن تشتق ليس من مقتضيات أحوالهم الراهنة ولكن من مستلزمات الأحوال المستقبلية المتطورة للجنس البشري" وبعبارة أخرى أن كانط يريد أن يقول إن منهج التربية ترسمه حركة التاريخ العام وليس تجارب الماضي البائسة.

المراجع:

1- Piere Tap, (1991). La socialisation de l'enfance á l'adolescence, P.U.F, Paris.

2- Berger P., Luckmann T.,:(1986). La construction sociale de la réalité, Méridiens, Paris.

3- Laterasse C.: (1987). Les origines de l'affectivité chez l'enfant dans la théorie Wallonnienne, Hommage á H.Wallon, Toulouse, P.U.M, Paris.

4- Berry J., W.: (1989). Acculturation et adaptation, psychologique, In la recherche interculturelle, Paris, L.Harmattan, Paris.

5- Camilleri C.: (1989). La culture et l'identité culturelle: Champs rationnel et devenir, in Chocs de culture, Harmattan, Paris.